إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ش/كانون الأول٢٠١١م

مظاهر رومانسيّة فی شعر أبی القاسم الشابی

عبدالحميد أحمدی*

الملخص

يعتبر المذهب الرومانسی الذی يعتمد علی أسس فلسفية خاصة يعتبر فی أوّل ظهوره تجديدا فی طريق الإحساس والتفكير والتعبير، إنّه ثورة ضدّ القيود التی فرضتها الكلاسيكيّة، إنّه تغيير فی مجال الأدب والفن أثمر عن ظهور نتاج ذاتی متحرّر. والرومانسيّة عندما وصلت إلی العالم العربی كان عهد ازدهارها قد انقضی فی البلاد الأوروبية، لكنّ العالم العربی كان يمرّ بمرحلةٍ من تاريخه تماثل فی ظروفها المأساويّة المتدهورة العصر الرومانسیّ فی أوروبّا. و«الشابّی» كشاعرٍ تأثّر بالتيّار الرومانسی استطاع – رغم قصر عمره – أن يمثّل المذهب الرومانسی فی تونس أحسن تمثيل، وأن يسهم فی نشره إلی حدٍّ بعيدٍ. فجاء هذا المقال وعلی أساس من المنهج التفسيری ليكشف عن أهمّ المضامين الرومانسية التی تجلت فی شعر الشابی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

الكلمات الدليلية: الرومانسية، الطبيعة، الحب، الألم.

---

*. عضو هيئة التدريس بجامعة زابل – أستاذ مساعد.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.عبدالحميد أحمدی
Elyasiniahmadi@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/٢٨هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/١٤هـ. ش

المقدمة

فى البحث حول الرومانسيّة ينبغى أوّلا أن نفرّق بين الرومانسيّة كنزعةٍ وبين الرومانسية كمذهب.إن الرومانسيّة كنزعةٍ قديمةٌ فى تاريخ الآداب والفنون لأنّها جزء أصيل من النفس البشريّة وهى تتجلّى منذ القدم فى بعض الأغانى والأشعار، والقصص والحكايات، وهى نزعةٌ تغلب على معظم أفرادِ البشرِ فى مرحلةٍ من مراحل حياتهم؛ فنراهم ينطوون على ذاتِ أنفسهم، ويفرّون مِنَ الحياة الجماعيّة التى لايجدون فيها السكون والاطمئنان، ويلجأون إلى عالمٍ من صنع خيالهم. (النويهى، ٢٠٠٠م: ٤١٠)

والروح العربيّة فى العصور السالفة كانت مفعمة بالنزعة الرومانسيّة ولكنّنا قلّما نجد الأدباء عبّروا عن هذه النزعة فى أدبهم بسبب تقيدهم بالموروث الأدبى والذوق العام والنظريّة النقديّة. (الأيوبى، ١٩٨٤م: ٢٥٤) فمن النماذج على هذه النزعة فى الأدب القديم قولُ الشنفرى مؤنِّباً قومه:

ولــى دونَكم أهلــونَ سِــيدٌ عَمَلَّسٌ وأرقــطُ زهلــولٌ وعرفــاءُ جيــأَلُ
هم الأهــلُ لامســتودعُ السِّــرِّ ذائعٌ لديهــم ولا الجانــى بما جــرَّ يخذلُ

(الشنفرى، ١٩٩٦م: ٥٩)

فنرى الشنفرى فى هذين البيتين يضيقُ ذرعاً بأهله وقبيلته، ويلجأ إلى الطبيعة الحيّة عند الوحوش البريّة ويفضّلهم على قومه. فهذه هى نزعة رومانسيّة تدخل فى صميم الشعر الوجدانى.

وأمّا الرومانسيّة كمذهبٍ أدبى يتميّز بسماتٍ خاصّةٍ، ويقوم على أسسٍ فلسفية ونقديّةٍ بارزةٍ، ويتجلّى فيه مظهرٌ واضحٌ من التطورِّ الفكرى، فظهرت فى نهاية القرن الثامن عشر، وطغت على المذهب الكلاسيكى بدعوتها الهادفةِ إلى تحرير العاطفةِ من سيطرةِ العقل. وهذه الدعوة أثمرت عن ظهور أدبٍ ذاتى متحرِّرٍ من جميع الأنظمة والقواعد والقوانين التى أدّت إلى تدهور أوضاع المجتمع مادّياً وأدبيّاً.

إنّ من أهمِّ العواملِ التى ساعدت على انتشار الرومانسيّة فى العالم الأوروبى هى الحروب المدمّرة التى عمّت أوروبّا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وقد سبّبت هذه الحروب الطاحنة صدمة عنيفة لدى الجيل الذى كان مشبعاً بروح الوطنية والمغامرة ومتطلّعاً إلى انتصارات عظيمةٍ ومستقبلٍ زاهرٍ لبنى الإنسان، فلقد وجد هذا الجيلُ نفسه خائباً ومحروماً من كلِّ هدفٍ وأملٍ، لذا ساد عنده شعورٌ بالخيبةِ والإحباط، والانطواء على الذاتِ، والشكوى من الإجحاف. (الأصغر، ٢٠٠١م: ١١)

والرومانسيّة لم تقتصر على أوروبّا فحسب، بل تعدّتها إلى سائر أنحاء المعمورة لأنها تمثِّلُ الجمال الفكرى والروحى والنفسى والثورى الذى يتّفق مع الأوضاع المأساويّة التى كانت سائدةً فى مناطق مختلفة من العالم فى تلك البرهةِ من الزمن ولا سيّما العالم العربى.

المذهب الرومانسى فى الأدب العربى

بدأ إحساس أدباء العرب بالنفور من الأدب التقليدى الجامد، الذى ورثوه من عصر الانحطاط، منذ القرن التاسع عشر الميلادى، وكان هذا النفور إيذاناً بافتتاح عصر جديدٍ تزدهر فيه القيم العربيّة الأصيلة وتزول عنه صفة الجمود الذى ران على الحياة الفكرية والأدبية. (العشماوى، لاتا: ٩٥)

لقد لجأ روّاد حركة البعث الأدبى فى القرن التاسع عشر إلى الينابيع الأولى للشعر العربى، وخاصّةً فى عصر الازدهار العباسى، لكى يعيدوا للشعر العربىِّ القديم مجده من جديد ويتخطّوا المسافة الشاسعة بينهم وبين الأدب العربى الأصيل. ولقد استطاع محمود سامى البارودى ١٨٤٠-١٩٠٤م، الرائد الأوّل لهذا الاتّجاه، أن يرتفع ببنائه الشعرى ليحاكى به روائع الشعر العربى فى أيامه الزاهرة، كما استطاع أن يحقّق نجاحاً عظيماً فى استعارة الإطار الشعرى التقليدى وتحميله خواطره. (هدّاره، ١٩٩٤م: ١٧)

إنّ الاتّجاه الذى سلكه محمود سامى البارودى استطاع أن يؤثِّر تأثيراً بالغاً فى النهضة الشعرية بعد ذلک، حيث استمرّت حركة البعث (الإحياء) عند مدرسة بأكملها تزعّمها أحمد شوقى ١٨٨٦-١٩٣٢م، وكان من رجالها حافظ إبراهيم ١٨٧٢-١٩٣٢م، وعلى الجارم ١٨٨١-١٩٤٩م، ومعروف الرصافى ١٨٧٧-١٩٤٥م. وكانت هذه المدرسة تدعو

إلى إحياء التراث الشعرى القديم وإعادة مجده من جديدٍ ورفع الجمود والتقليد الجافِّ عنه. (الورقى، ١٩٨٤م: ٢٦)

وبعد أن قام شعراءُ مدرسة الإحياء بدورهم الكبير فى إعادة الشعر العربى إلى التدفّق فى مجراه الأصيل الذى اختطّه فى العصور الذهبيّة، ونفى ظواهر الضَعف والانحطاط عنه، استجدّت عوامل سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة على العالم العربى، هزّته هزّاً عنيفاً، وغيّرت من قيمه ونظرته إلى الوجود، ودعا بعض المثقّفين إلى الثورة على كلّ ما هو راسخ فى مجتمعهم ومنه الشعر. ووجد الشعراءُ أنفسهم مدفوعين إلى التيّار الرومانسى الثائر على سيادة المنطق والعقل والداعى إلى اتّخاذ العاطفة أساساً له فى التجربة الشعريّة. (هدّاره، ١٩٩٤م: ٢٢)

وممّا ساعد على انتصار الرومانسيّة فى الأدب العربى وانتشارها انتشاراً واسعاً المدارسُ الأدبيّة التى تجلّت فى مدرسة الديوان، والمهجر وأبولو. فقد دعت هذه المدارس إلى الاتجاه الوجدانى فى الشعر وتصوير ما يجيش فى النفس من خيالٍ وعاطفةٍ وإحساس، والالتفات إلى الطبيعة من خلال عواطف الشاعر وأحاسيسه، والمطالبة بالوحدة العضويّة للقصيدة، والتحرّر من أسر القافية الواحدة، والألفاظ الغريبة، والصور التقليديّة. وكان لهذه المدارس دورٌ كبيرٌ فى تمهيد الطريق أمام التيّار الرومانسى ليعمّ انحاء مختلفة من البلاد العربيّه ومنها تونس، مسقط رأس أبى القاسم الشابى.

المظاهر الرومانسيّة فى شعر أبى القاسم الشابى

كانت تونس كغيرها من البلدان العربيّة التى تظافرت عليها عوامل الانحطاط والجمود فى الشعر، فكان الشعراء كنسخة مكرّرةٍ، لاينفرد شاعرٌ منهم بمزيّة. وكانت الحال هكذا إلى أن ظهرت المدارس الأدبيّة الجديدة التى أشرنا إليها آنفاً. وبظهور هذه المدارس وبانتشار صحفهم الأدبيّة ومنشوراتهم نشأ فى تونس جيلٌ جديدٌ يخالف التقليد ويدعو إلى التجديد، وكان فى دعوته هذه نزّاعاً إلى المذهب الرومانسى. واعتمد التجديد عنده على ركنين: ثورة على المضمون وثورة على الصياغة. (التليسى، ١٩٦٧م: ٧٨)

وفی هذه اللحظة الغنيّة فی مسيرة الشعر التونسی خلال القرن العشرين ظهر فيها علم من أعلام الشعر استطاع رغم قصر عمره أن يصوّر المذهب الرومانسی أحسن تصويرٍ وأن يسهم فی نشره إلی حدّ بعيدٍ، وهذا العلم هو أبوالقاسم الشابی الذی بات أحد أقطاب الرومانسيّة العربيّة.

كان الشابی من أولئک الذين ثاروا علی التعريف الذی يجعل من الشاعر فقط مؤرّخاً لعصره وعاداته وأخلاقه، مؤمناً بأنّ الشاعريّة الحقّةَ أن يرتفع الشاعرُ بروحه إلی آفاقٍ فسيحةٍ أرحب وأسمی من سماء البيئة المحدودةِ، إلی عالمٍ من صنع الخيال والأحلام، يعبّر فيه عن عواطفه وأحاسيسه المشبوبة. وهو فی ثورته هذه يسلک مسلک الرومانسيين الذين اتّجهوا إلی ذواتهم واستخرجوا منها أسرار بواطنهم.

وقد أشار الشابی وبكلّ وضوح فی رسالةٍ أرسلها إلی صديقه السوری الدكتور علی الناصر ۱۸۹۴–۱۹۷۰م، إلی ضرورة انحياز أدباء العربِ إلی المذهب الرومانسی. فهو فی هذه الرسالة يقول: «إنّ الأدب العربی فی حاجةٍ إلی ثورة أدبيّةٍ تجتاح كلَّ مارثّ من قديمه، وبلی من جذوعه، إلی نهضة رومانسية تنفخُ فيه روحاً جديداً وتبعث فيه لهيب الحياة القويّة الثائرة، فتخلقه خلقاً جديداً يلائم نفوس الشرقيين الطامحين إلی آمالٍ جديدةٍ وحياةٍ كاملة.إنّ أدبنا لم يتحدث بجمال الوجود، ولم ينبع شعره برحيق هذه الفتنة الساحرة؛ فنحن فی حاجةٍ إلی من يحدّثنا بمثل ذلک، إنّ أدبنا لم يتحدّث عن عواطف الإنسان البعيدة وآلامه العميقة وأفكاره الغريبة المستترة النائية ونحن فی حاجةٍ إلی من يحدثنا بذلک.» (كرو، ۱۹۹۹م، ج۵: ۱۹۷)

وفی قصيدة فكرة الفنّان يؤكد الشابی كغيره من الرومانسيين علی كونِ الشعور أساساً فی نظم الشعرِ ويقولُ:

عِش بالشــعورِ وللشّــعورِ فإنّما دنيــاک كــونُ عواطف وشــعور
شِيْدت علی العطفِ العميق وإنّها لتَجِفّ لو شــيدت علــی التفكير
واجعل شعورَک فی الطبيعة قائداً فهــو الخبيــرُ بتيهها المســحور

والعقــلُ رُغْــم مشــيبه ووقاره مازال فــى الأيّــام جِــدَّ صغيرِ

(الشابى، ١٩٩٧م: ٧٩-٧٨)

فالشاعر فى هذه الأبيات يؤثر الحسّ والعاطفة على العقل والمنطق، ويدعو إلى تحرير العاطفة والشعور من سيطرة العقل ويسلّم القياد إلى القلب لأنّه الخبير بكنه الأشياء وحقائقها.

والشابى - كشاعرٍ رومانسى- ركّز على الجانب الوجدانى من التجربة الشعريّة وعالج فيها موضوعات رئيسة تتصف بكلِّ مواصفات المذهب الرومانسى. فمن هذه الوضوعات؛ الطبيعة، والمرأة والحبّ، والإحساس الحادّ بالألم والتشاؤم.

الطبيعة

كانت الطبيعة من الموضوعات التى ظهرت فى معظم الأعمال الأدبيّة على مرِّ العصور. ونَحن إذا تدبّرنا وأمعنّا النظر فى الآثار الأدبيّة العربيّة التى وصلتنا من القرون السالفة نجد أنّ شعراءَ العرب منذ الجاهليّة قد اتجهوا نحو الطبيعة ومظاهرِها، ووصفوها وصفاً دقيقاً، وتغنّوا بجمالها وزوايا الحسن فيها.

ولكنّنا نلاحظ فى آثار معظم هَؤلاء الأدباء أنّهم اعتنوا بالتسجيل التصويرى والتوصيف المادّى للطبيعة فقط، فمثلاً ابن خفاجة الأندلسى ١٠٥٨-١١٣٨ الشاعر المبدع فى وصف الطبيعة يصف نهراً بقوله:

لله نهـْر ســال فــى بطحــاء أشهى ورود من لمى الحسناءِ
متعطّــفٌ مثــلُ السِّــوار كأنّــه والزهــرُ يَكنُفــه مجرُّ ســماء
قــد رَقَّ حتّى ظُنّ قرصاً مفرغاً مــن فضَّةٍ فــى بــردةٍ خضراء

(ابن الخفاجة الأندلسى، لاتا: ١٢)

فابن خفاجة فى هذه الأبيات اعتنى بالشكل الخارجى للطبيعة ولم يلتفت إلى روح الطبيعة ذاتها ويسقط عليها من إحساسه وعواطفه ما يجعلها كائناً حيّاً ترثو لحاله عندالحزنِ والألم.

ولكنَّ الشابیّ، كشاعر تأثّر بالتيّار الرومانسی، مزج بين إحساسه ومظاهر الطبيعة من حوله، واتّخذ من الغاب والعصفور والزنبقة والبلبل مستودعاً لأسراره وهمومه،لأنه لم يجد أفضل من الطبيعة يلجأ إليها ويبثّها شكواه؛ ويعود ذلک لعدّة أمور أهمّها: ولادة الشاعر فی منطقة جبلية وتنقلّه المستمرّ منذ صباه من منطقة إلی منطقة أخری، الأمر الذی غذّی حبه للطبيعة ومظاهرها الخلابة أضف إلی ذلک تنكّره للحياة الاجتماعية وتقلّبات النّاس ومكرهم وخداعهم ممّا جعله يری الطبيعة مدعاة سكون واطمئنان نفسی. (البعينی، ۲۰۰۸م: ۱۰۵) فهو فی قصيدته أحلام الشاعر يتمنّی أن يعيش فی أحضان الطبيعة بعيداً عن الناس، ويخلو بذات نفسه، ويحلم ويستسلم ويصغی إلی صوت فؤاده، فيقول:

ليت لی أن أعيش فی هذه الدُّنـ ـيا سـعيداً بوحدتی وانْفرادی
أَصْرِفُ العمرَ فی الجبالِ وفی الغا بـاتِ بيـن الصّنوبـر الميّـاد
ليس لی من شواغل العيش مايص رف نفسی عن استماع فؤادی
أرقب المـوت والحياة وأصغی لحديـثِ الآزالِ والآبـادِ
وأغنّـی مـع البلابـل فـی الغا ب وأصغی إلـی خريرِ الوادی
عيشـةً للجمـال والفـنّ أبغی هـا بعيداً عـن أمّتـی وبلادی

(الشابی، ۱۹۹۷م: ۶۳)

والشابی فی قصيدته (إلی الغابِ) يشير إلی الشعور الذی ينتابه عندما يكون فی الغاب بين صفوف النخيل والتلاع الخضر والآجام، إنّه شعورٌ يملأ عليه دنياه بهجةً وسروراً ويسوقه إلی عالمٍ من الخيال ينسی فيه الشاعرُ كلّ همومه وأحزانه.

فی الغابِ دنيـا للخيالِ وللرؤی والشِّـعر والتفكيـرِ والأحـلامِ
فی الغابِ فی الغابِ الحبيبِ وإنّه حـرمُ الطبيعة والجمالِ السـامی
طهّرتُ فی نارِ الجمالِ مشاعری ولقيـتُ فی دنيا الخَيالِ سـلامی
ونَسـيْتُ دنيا الناس فهی سخافةٌ سـكری من الأوهـامِ و الآثامِ
وقبستُ من عَطْفِ الوجود و حُبّه وجمالـه قبسـاً أضـاء ظلامی
فرأيـتُ ألـوان الحيـاةِ نضيـرةً كنضـارةِ الزَّهر الجميـل النامی

فأهبتُ مســحورَ المشاعرِ حالماً نشــوان بالقلب الكئيــب الدامى

(المصدر نفسه: ١٠٩)

إنّ الشابى فى هذه الأبيات يرى الغاب قبساً أضاء الطريق أمام نفسه التائهة فى الظلمات الحالكة، كما يراه وسيلةً طهّرتْ نفسه من الأدران والأوساخ التى لحقتْ بها بسبب مجالستِها جلساءَ السوءِ، ثمّ يشير إلى أنّ الغاب معبدُ الروح والنفس والفكر الذى يجد فيه الشخص الراحة والطمأنينة ويتخلّص به من هموم الحياة وأعباء المجتمع.

المعبــدُ الحــىُّ المقــدَّسُ ههنــا ياكاهــنَ الأحــزانِ والآلام

فاخلعْ مسوحَ الحزنِ تحت ظلاله وألْبــسْ رداء الشــعر والأحــلام

(المصدر نفسه: ١١١)

والشابىّ فى قصائده لم يتوقف عند حدود المظاهر الطبيعية الصامتة بل تعدّاها إلى مظاهر طبيعية حيّة، والتفت إلى البلبل، والعصفور، والنحل والفراش وغيرها من هذه المظاهر. فنراه فى قصيدة له بعنوان مناجاة عصفور يخاطب العصفور ويبثّه شكواه، فيقول:

يــا أيّها الشــادى المغــرّدُ ههنا ثمــلاً بغبطــة قلبــه المســرور

غــرّدْ ففى قلبــى إليک مــودّةٌ لكــنْ مــودّةُ طائــر مأســورِ

هجرتْه أسرابُ الحمائم وانْبرتْ لعذابــه جنّيّــةُ الديجــورِ

غــرّدْ ولاترهــبْ يمينــى، إنّنى مثلُ الطيور بمهجتى و ضميرى

أشــدو برنّات النياحة والأســى مشــبوبةً بعواطفــى وشــعورى

غــرّد ولا تحفِــل بقلبــى، إنّــه كالمعــزفِ المتحطّــم المهجور

(المصدر نفسه: ٧٦)

إنّ هذه الأبيات تدلّ على اندماج الشاعر فى الطبيعة ومحاكاةٍ لها فى غاية الروعة والتصوير. إنّ الشاعر فى هذه الأبيات يخاطب الطائر ويبثّه شكواه ويحثّه على التغريد. إنّه يرى نفسه طائراً يغرّد بصوت الكآبة والزفير، طائراً يغمره إحساسٌ عميقٌ غريب عندما يسمع صوت الطيور المتدفّق من صميم قلبها المملوء حرارة وإخلاصاً. إنّه يرى

سعادته وسروره فی التحدثّ مع الطيور والاستماع لشدوها وتغريدها، والابتعاد عن الناس الذين لايری فيهم إلاّ كلّ غادر وخبيث، جلُّ همّه أن يُرضی نفسه ولو كان ذلک علی حساب ظلم الآخرين.

آهٍ من النــاس الذين بلوتُهم　　فَقَلَوْتُهم فی وحشتی وسروری
مــا منهــم إلاّ خبيــثٌ غادِرٌ　　متربِّــصٌ بالنّاس شــرّ مصيرِ

(المصدر نفسه: ۷۷)

فجميع قصائد الشابی تكاد لاتخلو من المظاهر الطبيعية، لأنّه يراها ـ كغيره من الرومانسيين ـ أداةً لبيان مايدور فی نفسه من عواطف وأحاسيس مشبوبة. فمثلاً فی قصيدته إرادة الحياة، تتحوّل الطبيعة بأرضها ورياحها وغابها إلی شخوصٍ حيّة يبادلها الحديث، ويسألها عن حقائق الوجود.

المرأة والحبّ

لعب الحبُّ دوراً كبيراً فی آداب أقوام مختلفة من العالم، وكانت المرأة منذ قديم الزمن بالنسبة للرجل هی المصدر الرئيس لإثارة مشاعر الحبّ عنده، فالتفّ الرجلُ حولها التفافاً جعلت منه شاعراً مبدعاً وفنّاناً بارعاً، ورسّاماً حاذقاً، فكتب ونظم ورسم أحسن آثاره ونتاجاته حول المرأة.

وموضوع المرأه والحب شغل حيّزاً كبيراً فی آثار ونتاجات أدباء العرب علی مرّ العصور. والفكر الذی كان يسيطر علی روح الكثيرين من الأدباء فی العالم العربی هو أن المرأة مثلٌ للغدر واللؤم وخسّة الطبع، وفی هذا المجال يقول المتنبّی:

ومن خبــر الغوانــی فالغوانی　　ضيــاءُ فــی بواطنــه ظــلامُ

(المتنبی، لاتا، ج۴: ۷۲)

وهذه النظرة المادّيّة بالنسبة للمرأة جعلتْ الأدباء لايفهمون منها إلاّ أنّها جسدٌ يُشتهی ومتع من متع العيش الدنیء، فأخذوا يصفون المظاهر الجسديّة فی المرأة من خدٍّ، وردف، وساق، وقدّ وما إلی ذلک من الأوصاف المادّيّة، دون الاعتناء بما وراء الجسد من روحٍ

ساميةٍ وعواطف صادقةٍ وأحاسيس طاهرة، تؤدّى إلى السَّير مع الحبيبة فى عالم الخيال والأحلام. فمثلاً جميلُ بثينة، الشاعر العذرى، يتغزّل بمحبوته فيقول:

حلّــتْ بُثَيْنَةُ مِنْ قلبــى بمنزلةٍ بينَ الجوانح لــم يَنْزِلْ بها أحدُ
صادتْ فؤادى بعينيها ومُبْتَسَــم كأنّــه حيــن أبْدَتْــه لنــا بَــرَدُ
وجيــدِ أدماءَ تحنوه إلى رشــأٍ أغــنَّ لــم يتّبعهــا مثلَــه وَلَــدُ

(بثينة، ١٩٩٣م: ٩٨)

فجميل بثنية فى هذه الأبيات ركزّ على المظاهر الحسيّة والجسديّة عند المرأة ولم يعتن بما وراء الجسد من روح سامية طاهرة تزخر بمعان قدسيّة.

ولكنّ المرأة فى شعر الشابى المتأثّر بالتيّار الرومانسى احتلّت مكانة رفيعة لم تظفر بمثلها فى الأدب القديم. فلقد اُتّجه الشابى إلى تقديسها والخضوع لسلطانها. فعاطفة الحبِّ عنده كانت بمثابة تجربة روحيّة ترتبط بالمعانى الطاهرة والعفة والصمود أمام الشهوات. هذه العاطفة الصادقة جعلته يرى المرأة ملكا هبط من السماء ليطهّر النفوس من الأوساخ والأدران، ويرفع عنها الغمّة والأحزان، ويسوقها إلى عالمِ الطهارة والأمان، عالم الخيال والأحلام.

إنّ من أروع قصائد الشابّى فى الحبِّ والمرأة قصيدته صلوات فى هيكل الحبِّ، التى تعدّ نموذجاً بارزاً لنضوج الشعر الرومانسى عنده. يبتدأ الشابّى قصيدته هذه بمناجاة حبيبته ويركّز فى وصفه على صفة العذوبة والرأفة والطهر والحنان ويراها مقدّسة عند جميع الناس حتّى الشقىّ العنيد:

يا لها من طهــارةٍ تَبْعثُ التقــ ديس فى مهجة الشَقّى العنيد

(الشابى، ١٩٩٧م: ٥١)

ثم يجعلها رمزاً للسعادة وأداة لإدخال الفرح والسرور فى القلوب التعسة، ووسيلة لإحلال الأمن والسلام فى العالم، فيشبهها، بفينيس إلهة الجمال عند الرومان وبملک من ملائكة الجنة، كما يراها طريقاً لتفتّح مواهبه وتنميتها، ونضج عبقريّته وسموها، وسعادة نفسه وسرورها، فيقول:

أی شَـــیءٍ تراک؟ هل أنت فینیـ ... سُ تهادتْ بین الوری من جدیدِ
لِتُعیْـدَ الشـبابَ والفـرحَ المعـ ... ـسـولَ للعالَـم التعیـسِ العمید
أم ملاک الفردوس جاء إلی الأر ... ض لیحیی روحَ السـلامِ العهید
أنتِ تحییـنَ فی فـؤادِیَ ماقد ... ماتَ فی أمسـیَ السـعید الفقید
وتُشـیدینَ فـی خرائب روحی ... ماتلاشـی فی عهـدی المجدودِ
من طموحٍ إلی الجمالِ إلی الفنّ ... إلـی ذلـک الفضـاءِ البعیـد

(المصدر نفسه: ٥١)

ونحن إذا تصفّحنا دیوان الشابی وجدنا قصائده التی عالج فیها موضوع الحبِّ والمرأة قریبة جدّاً فی معانیها السامیة من هذه القصیدة، لأنّه یری الحبَّ فی معظمه رمزاً للسعادةِ، والمرأة مثالاً للطهر والإنابة.

الحبُّ شعلةُ نورٍ ساحرٍ، هبطتْ ... مِنَ السَّماء فکانتْ ساطعَ الفَلَقِ
ومزّقتْ عن جفونِ الدهرِ أغشیةً ... وعَنْ وجوهِ اللیالی بُرْقَعَ الغَسَقِ
الحـبُّ غایةُ آمـالِ الحیاة فما ... خوفی إذا ضمّنی قبری ومافَرَقَی

(المصدر نفسه: ٩٦)

وفی قصیدة الجمال المنشود، یؤکد الشاعر علی جمالِ روح المرأة وعلی أنّه هو الأساس فی الحبِّ الصادق، فیقول:

وربیعُ الشـباب یُذبلُـه الدهرُ ... ویمضـی بحسـنه المعبـودِ
غیرُ باقٍ فی الکونِ إلاّ جمالُ ... الروحِ غضّاً علی الزمان الأبید

(المصدر نفسه: ٥٩)

فالشابی عندما یعالج هذا الموضوع فی شعره تنصهر روحه بروح محبوبته ویحلّقان معاً فی عالم الخیال والأحلام، فی عالمٍ روحانی لایوجد فیه إلاّ الحبّ الحقیقیّ الذی هو رمز السعادة الأبدیّة الخالدة.

الإحساس الحاد بالألم والتشاؤم

ظاهرة الألم ظاهرة عامّة لم تترک شخصاً إلاّ وأصابته بسهامها. فجميعنا وربّما دون استثناء مرّت علينا لحظات طوال أوْ قصار، عانينا خلالها من الحزن والأسى على آمالٍ ضاعتْ، وفرصٍ ولّتْ، وأعزّاء أو أصدقاء فقدناهم، وجميعنا بلا استثناء شعر فی لحظةٍ من لحظات حياته أن الحياة فی هذه الدنيا أصبحت عديمة الجدوی، وأنّها كفاحٌ طويلٌ وعقيمٌ، وأنّ لحظات السعادة والفرح فيها أقل بكثير من لحظات المشقّة والعناء.

إن ظاهرة الألم قد انعكست فی الأدب وكانت فی أدب الرومانسيين أشد انعكاساً. ولقد عالج الشابی، هذه الظاهرة فی معظم قصائده لأنّه كان يعانی الأمرّين، ضغوطا نفسية وضغوطا جسميّة؛ فالضغوط النفسيّة نتجت عن فقدان والده وفراق حبيبته، فضلا عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المتردّية التی لحقت بشعبه بسبب الاستعمار والتخلّف، والأهمّ من ذلک ظلم المجتمع له، والضغوط الجسميّة نتجت عن مرضه الذی عانی منه كثيراً ورمز إليه فی بعض أشعاره.

فالأوضاع المأساويّة التی أحاطت بالمجتمع التونسی بسبب الاستعمار من ناحية، والتخلف والجمود من ناحية أخری، أثّرتْ علی نفسيّة الشاعر الحسّاس تأثيراً قويّاً ممّا جعلته يتألم ويتعذب أشدّ العذاب. ولقد أشار الشابی فی قصائد عديدة إلی الحياة الصعبة المريرة التی يعيشها هو وشعبه تحت وطأة الاستعمار؛ ففی قصيدته للتاريخ، يقول.

البؤسُ لابنِ الشَعبِ يأكلُ قلبه　　والمجـدُ والإثـراءُ للأغرابِ
هـذا قليـلٌ مِـنْ حيـاةٍ مُرَّةٍ　　فی دولـةِ الأنصاب والألقاب

(المصدر نفسه: ٢٦)

وفی قصيدته الدنيا الميّتة، لايتألم الشابی من الظلم والاستبداد الذی حلّ بقومه بل يتألم من تخلّف شعبه وجموده، ورجعيّته وجهله، فيقول:

إنّی أری فأری جموعاً جمّةً　　لكنّهـا تحيـا بـلا ألبـابِ

(المصدر نفسه: ٢٨)

ومن أبرز آلام الشابّی النفسيّة ظُلْمُ المجتمع له، فهو يبذل قصاری جهده للدّفاع عن

حقّ شعبه والرفع من مستواه الفكرى والثقافی وتوفير السعادة له، لكنّه لايظفر عنده بإقبال وإجلال؛ لذا تثور ثائرته وينقم على المجتمع الذى لايكترثُ لنصائحه ولايقدّر ما يقوم به الشاعر من أعمالٍ لرفع نير الظلمِ عنه. فيراه روحاً غبيّة تكره التقدّم والنور، و تحبّ الجهل والد يجور.فهو يعرب عن هذا المصدر فی قصيدته النبّی المجهول، بقوله:

أنــت روحٌ غبيّــةٌ تكــرَهُ النــورَ وتقْضــی الدّهورَ فــی ليل مَلْس
أنت لاتدرک الحقائق إن طافتْ حواليــک دون مــسّ وجــسّ
فی صباحِ الحياة ضمّختُ أكوابی وأترعتُهــا بخمــرةِ نفســی
ثــمّ قدّمتُهــا إليــک فأهرقــتَ رحيقی و دُسْــتَ يا شعبُ كأسی
فتألّمــتُ ثــمّ أســكتُّ آلامــی وكفكفتُ من شــعوری وحسِّــی

(المصدر نفسه: ۲۸)

وممّ زاد من حدّة آلام الشابی، ونغّصَ عليه عيشه أكثرمن ذی قبل، موت أبيه الذی كان يراه ملاذاً لنفسه عندما تشتدّ به الكربات، وتثقل كاهله المشاكل والأحداث. ففی قصيدة ياموت، نری الشابی يصرخ صرخةً مليئةً بالذكريات ممزوجةً بالأحزان والأشجان فيقول:

ياموتُ قــد مزّقتَ صدری وقصمتَ بــالأرزاءِ ظهری
ورَمَيْتَنِــی مــن حالــق وسَــخِرْتَ منّی أی سُــخْرِ
وفجعتنــی فيمــن أحِــبُّ و مــن إليــه أبــثُّ ســرّی
وأعِــدُّه فجــری الجميــلَ إذا أُدلهــمَّ علــی دهــری
ورزأْتنِــی فــی عمدتــی ومشــورتی فــی كلِّ أمری

(المصدر نفسه: ۸۰)

ولقد أثّرت الضغوط النفسيّة والجسميّة على الشابی تأثير بالغاً أدّی به إلى التشاؤم والكآبة؛ وإنّ من أبرز قصائده التی حملت ميسم التشاؤم قصيدته إلى الله، ففی هذه القصيدة تشتدّ الآلام والمصائب على الشابی حيث لايجد فی الكون إلاّ الظلمة والحلكة. فيتجه إلى الله سبحانه وتعالى ويزلّ زلّة عظيمة ولكنّه سرعان ما يعود إلى رشده ويستغفر

ربّه يذكرُ أنّه تفوّه بهذه العبارات وهو فی أشدّ حالةٍ من اليأس والقنوط والأسی. فيبتدأ قصيدته بقوله:

يــا إله الوجودِ هــذی جراحٌ　　فی فؤادی تشکو إليک الدّواهی
هــذه زفــرة يُصعّدهــا الهــمُّ　　إلی مَسْــمَعِ الفضاء الســاهی

ثمّ يلقی اللوم علی الله سبحانه وتعالی ويقول:

أنــتَ عذّبتنــی بدقّــةِ حسِّــی　　وجرّعتنــی مــرارةَ آهِ
أنــتَ عذّبتنــی بدقّــةِ حسِّــی　　وتعقّبتنــی بــکلِّ الدَّواهــی
بالأسی، بالسّقام، بالهمّ، بالوحشة　　باليــأس، بالشــقاء اللامتناهی

إلی أن يصل:

يا ضميرَ الوجودِ يا عالَم الأر　　واح يا أيّها الفضاءُ الســاهی
خبّرونــی هل للوری من إلاه　　راحــم- مثلِ زعمهــم- أوّاه
إنّنی لم أجده فــی هذه الدُّنـ　　ـيا فهل خلــف أُفْقِها مِنْ إلاه

لكن سرعان ما يفيق الشاعر، ويستعفر ربه ويقول:

مــا ألّذی قدْ اتيتَ يا قَلْبیَ البـ　　ـاکی وماذا قد قلتِه يا شفاهی
ياإلهی قــد أَنْطَقَ الهــمُّ قلبی　　بالــذی کان فاغتفــرْ يا إلهی

(المصدر نفسه: ۱۴۰-۱۳۸)

إنّنا فی هذه القصيدة نشعرُ أن التشاؤم أصبح کلهيب نار متّقدة فی نفسِ الشاعر إلی أن بَلَغ به أن يتنکّر لوجود الله - سبحانه و تعالی- ويطرح اللوم عليه؛ وهذا ما بدا واضحا فی کثير من أشعار الرومانسيين الذين ثاروا علی کلّ شیء حتی علی خالقهم الذی خلقهم وخلق لهم ما فی الأرض جميعا.

النتيجة

لقد تجلت مظاهر الرومانسية فی جميع نتاجات الشابی الشعرية حيث کان ثائرا علی المضامين الشعرية القديمة الجافّة، وهذا ما نراه واضحاً وجليّا من خلال أفکاره ومبادئه

التی اعتمد فيها على الذاتية أو الفردية التی تتضمن عواطف الحزن والكآبة والأمل، وأحياناً الثورة على المجتمع و التحرر من قيود العقل والواقعية والتحليق فی رحاب الخيال والصور والأحلام؛ هذا فضلا عن اهتمامه بالطبيعة التی كانت عنده رمزا للطهر ومثالا عاليا للاحتذاء والاقتداء ومعبدا للروح ومستودعا للأسرار والهموم وأداة للتخلص مما فی دنيا الناس من همجية وظلم وانتهاک لحقوق الإنسان.

المصادر والمراجع

ابن خفاجة الأندلسی، إبراهيم ابن أبی الفتح. لاتا. *الديوان*. تحقيق عمر فاروق الطبّاع. بيروت: دار القلم.

الأصغر، عبدالرزاق. ۲۰۰۱م. *المذاهب الأدبية لدى الغرب "الرومانسية"*. مجلة دراسات أدبية. العدد ۳۷۰. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

الأيّوبی، ياسين. ۱۹۸۴م. *مذاهب الأدب «معالم و انعكاسات»*. بيروت: دار العلم للملايين.

البعينی، نجيب. ۲۰۰۸م. *موسوعة الشعراء العرب المعاصرين*. بيروت: دار المناهل.

التليسی، خليفة محمّد. ۱۹۶۷م. *الشابی وجبران*. بيروت: دارالثقافة.

بثينة، جميل. ۱۹۹۳م. *الديوان*. تحقيق مهدی محمد ناصر الدين. بيروت: دارالكتب العلميّة.

الشابی، أبوالقاسم. ۱۹۹۷م. *ديوان أغانی الحياة*. ضبط وشرح يحيی الشامی. بيروت: دار الفكر.

الشنفری، عمرو بن مالک. ۱۹۹۶م. *الديوان*. تحقيق إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتاب العربی.

العشماوی، أحمد زكی. لاتا. *الأدب العربی وقيم الحياة المعاصرة*. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة.

كرو، أبوالقاسم محمد. ۱۹۹۹م. *موسوعة الشابی*. بيروت: دار صادر.

المتنبی، أبوالطيّب. لاتا. *الديوان*. شرح أبی البقاء العكبری. بيروت: دار المعرفة.

النويهی، محمد. ۲۰۰۰م. *قضيّة الشعر الجديد*. بيروت: دارالفكر.

هدّاره، محمّد مصطفی. ۱۹۹۴م. *دراسات فی الشعر العربی الحديث*. بيروت: دار النهضة العربيّة.

الورقی، السعيد. ۱۹۸۴م. *لغة الشعر العربی الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية.